Quotidien

شوف تشوف

رشيد نيني
r_niny@yahoo.fr

ثلاث فتيات يتحضرن للمجهول !

جئن ثلاثتهن ووقفن بانتظاري بجانب مقهاي الصباحي حيث أفطر وأطالع الجرائد قبل أن آخذ القطار. أعمارهن تتراوح بين ثماني عشرة وعشرين سنة. عيونهن تتقد ذكاء، هذا طبيعي، فثلاثتهن يدرسن البيولوجيا والكيمياء والفيزياء وعلوم الأرض في الأقسام التحضيرية بالقنيطرة. هن واحدات من أنجب وأذكى الشباب المغربي. لكن هذا الذكاء المتقد الذي يلوح من عيونهن يشوبه حزن عميق لا يليق بأعمارهن. فقد أضربن عن الدراسة وأتين إلى وزارة التربية الوطنية بالرباط لكي يعتصمن مع زملائهن القادمين من أكادير. فيبدو أن الحبيب المالكي قد فتح شهية الإضرابات التعليمية عندما صرح لإحدى الجرائد أن الإضرابات في المغرب نتيجة مباشرة للرفاهية السياسية التي تعيشها المملكة. ولهذا السبب لم تعد الإضرابات التعليمية حكرا على مقر الوزارة بالرباط وإنما امتدت لتصل إلى فرنسا، حيث يعتزم منفيون سابقون من رجال التعليم تنظيم وقفة احتجاجية أمام سفارة المغرب بباريس للمطالبة بإعادة إدماجهم في وزارة التربية الوطنية. الإضرابات ديالولنا وصلو حتى لفرانسا والسي المالكي كايهضر على الرفاهية، ماعرفنا شكون اللي فالرفاهية، واش وزير التعليم ولا اللي معتاصمين قدامو!

والحقيقة أنني عندما استمعت لمأساة هؤلاء الطالبات الثلاث اقتنعت بأن المسؤولين عن التعليم في المغرب ينتقمون من الذكاء المغربي شر انتقام. ويحطمون مستقبل البلاد عن سبق إصرار وترصد. إذ ما معنى أن تأخذ زبدة التلاميذ المتفوقين في دراستهم، تلاميذ تتراوح نسبة معدلاتهم بين خمسة عشر وسبعة عشر، لديهم ذكاء نادر وتكوين جيد في تخصصات علمية معقدة وأساسية لمستقبل البلاد، ثم تحشرهم ضيوفا في داخلية مؤسسة ابن سينا حيث عليهم أن يجتازوا ثلاثة أبواب ليقتسموا غرفا باردة مع التلاميذ الداخليين لا يترددون في تذكيرهم كل مرة أنهم مجرد ضيوف وعليهم أن يلتزموا بساعات النوم ومواعد إطفاء النور وساعات الأكل. الأكل الذي تفوح منه رائحة الصودا المدرة للنوم والكسل والتكلاخ، والتي يجب محاربتها بفناجين كثيرة من القهوة إذا أردت أن تركز مع الأستاذ في الدرس. ما معنى أنه عندما يذهب تلاميذ الداخلية في عطلة دراسية يغلق المطبخ أبوابه ويبقى تلاميذ الأقسام التحضيرية بلا أكل. أما الدوش فتقول إحداهن ضاحكة :

- هاداك الدوش ديال الداخلية خصك إلى دوشتي تحتو تمشي للحمام تعاود التدويشة !

ما معنى أن تكون لنا أقسام تحضيرية يدرس طلبتها البيولوجيا والجيولوجيا والفيزياء في مدرسة لتكوين المعلمين ليس فيها حتى مرحاض صالح فبالأحرى أن يكون فيها مختبر. ما معنى أن تختار أذكى التلاميذ وتقرر لهم مادة الإعلاميات في الامتحان دون أن تتوفر المدرسة على حاسوب واحد. ما معنى أن تنهي سنتين من الدراسة وفي الأخير تجد أمامك أغلب المدارس مغلقة، فليس من حقهم أن يدخلوا كلية الطب ولا كلية الصيدلة ولا المدرسة الحسنية للمهندسين، مع أنهم يتخرجون مهندسين وأساتذة مبرزين. الحل الوحيد الذي يتركونه لهم هو أن يعيدوا الباك من جديد، في تخصص آخر غير التخصص الذي سبق لهم أن حصلوا فيه على الباك الأول، وأن يخربوا حظهم من جديد إلى جانب الكسالى الذين يعيدون الباك كل سنة. ولكم أن تتصوروا نفسية طالبات ظللن طيلة مشوارهن الدراسي يحصلن على معدل لا ينزل عن سبعة عشر وهن يعدن الباك مع الكسالى والفاشلين. وكأنهم يقولون لهن ساخرين :

- علاش بوكم تقراو، علاه هاد البلاد ديال القراية، هاد البلاد خصكم تكونو فيها حمير بو ودنين باش طفروه !

وعندما سألتهن لماذا لم يذهبن للخارج لمتابعة دراستهن، خصوصا أن أمثالهن تتخاطف عليهن الجامعات والمعاهد الأجنبية، قالت إحداهن وهي تعض على شفتيها حسرة :

- زعما بغينا نبقاو نقراو ونخدمو فبلادنا على حقاش محتاجا لينا...

فعقبت صديقتها :

- أعباد الله حنا را هوما الأطر اللي غاديا تحتاج ليهم الدولة غدا، كي غادي نديرو نقراو وحنا ماعارفينش فين غاديين، حنا ماباغيين والو من وزير التعليم، بغيناه غير يفتح لينا الدخول للمعاهد ديال الدولة ملي نكملو عامين ديال القراية فالأقسام التحضيرية. دخلنا عليك بالله آ السي المالكي لاش كاتحضرو فينا دابا، للزنقة ؟

بالإضافة إلى ذكاء هؤلاء الطالبات فهن يتوفرن على قدرة كبيرة على السخرية. وقد علقت إحداهن وهي تتحدث عن غياب الوسائل التقنية لإجراء التجارب التي يحتاجونها في مادة البيولوجيا قائلة :

- عرفتي داك النهار باش نديرو واحد التجربة علمية على الحوت مشينا للسويقة باش نتقضاوه من جيوبنا، وواحد الساعة درات لينا فالخوا وفكرنا نضربوها ليه بشي قلية فالزيت وناكلوه، بعدا الوحدة تشبع فكرشها بعدا ولهلا يقلب شي تجربة !

فردت عليها الأخرى وقد بدأت تستعيد مرحها وملامحها الطبيعية :

- وبعد المرات كانحتاجو الجراد لشي تجربة فالبيولوجيا وكانخرجو للخلا نقلبو عليه وكايمشي لينا النهار باطل، جاب الله واحد الطالبة معانا من كرسيف كان جاهم الجراد وجابت لينا واحد الاحتياطي منو هو اللي عاصرين عليه دابا فالقراية !

فانفجرت الأخرى ضاحكة وقالت ساخرة :

- دابا هاد الوزارة إلى ماقادراش توجد لينا فين نقراو وفين نسكنو، تدير فينا خير وترسل لينا غير الحشرات من الرباط باش نخدمو عليها فالتجارب اللي كانديرو، ياك عطا الله الحشرات فهاد البلاد !

كانت جلسة صباحية امتزج فيها الضحك بالحزن والأمل بالتشاؤم. فتيات في زهرة العمر، حباهن الله بذكاء متوقد ومحبة كبيرة لهذا البلد، وجدن أنفسهن فجأة منكبات على كتابة وحفظ الشعارات التي سيرددنها أمام وزارة التعليم، في الوقت الذي كان يجب أن يكن فوق مقاعد الدرس يكتبن ويحفظن دروسهن.

ودعتهن وذهب كل منا إلى شأنه، طبعا أوصيتهن بأن ينتبهن لأنفسهن وهن يقفن أمام وزارة التعليم، فالسي الحبيب المالكي الذي يؤمن بأن الإضرابات هي نتيجة طبيعية للرفاهية السياسية التي نعيشها في هذه البلاد، ينسى أحيانا أن يترك المضربين يتمتعون بهذه الرفاهية بطريقتهم الخاصة ويربط الاتصال بقوات التدخل السريع لكي يجعلوا هؤلاء المضربين يتذوقونها بهراواتهم. فيبدو أن هذه الرفاهية المضمخة بالدماء هي التي يتحدث عنها سعادة الوزير !